

وعندما وجدتها .. انترقتنا

بها، وأقدر على تحمل صروفها، ورأيت أن أمدها بطاقة من التحمل تعينها على اجتياز أول صورة من صور القهر في حياتها عن طريق تجربة خضتها. ورحت أحكي لها وأنا أربت على كتفها. اسمعي يا فاطمة:

كنت أسمع وأنا طفلة من هم أكبر مني سنا يرددون كلما غاب عنهم حبيب أو صديق وذهب إلى مكان بعيد «الأرض على رحبها وسعتها صغيرة، ولا بد يوماً أن تتلاقى الوجوه».

فإذا كان الفراق بالموت تمثلوا بقول رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه:

« أحب من شئت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت » إنها كلمات لا تمر عابرة، وإنما تستقر في الذهن ذخيرة يستخرجها المرء ليعتبر بها كلما حاقت به ملامة من الملمات التي يحفل بها الدهر وتستوجب التأسي وتستحق التعزية.

ولقد مررت بموقف ما زالت أيامي تردد صداه لتشهد على ما يحمله قلبي المعنى من ججود البشر، ومقابلتهم مشاعر الود بألوان من الاستهتار والجود تورثه القهر، وتذيقه لونا من ألوان الموت. إنه الموت المعنوي لا الموت المألوف الحق المتفق عليه.

بقلم: د. اعتماد معوض عوض
مصر

إلى صدري، وهذا ماجعلني أجدبها من يدها لأنفرد بها في حجرة نومي، وجلسنا متقابلتين، وفي صوت يذوب هما بدأت تبوح لي بما يكدرها:

- ما كنت أتصور أن أعز صديقاتي وأقربهن إلى نفسي تقابل حبي وإخلاصي لها بالجحود والإنكار، وتفضل أن تنضم إلى مجموعة من الزميلات لا أرتاح إلى صحبتهن، مفضلة وجودها معهن على ملازمتي لها، مكثفة بصداقتها ومستغنية بها عن غيرها.

مسكينة فاطمة، إنها تقف عند أول محطة من محطات القهر العاطفي التي سوف تضطر للوقوف عند غيرها على مرور الأيام، إنها صورة من صور الجحود تتجرعها ولا تكاد تسيغها.

واقتربت منها وأخذت رأسها الصغير لأسنده على كتفي.

ورأيت أن أرطب حرارة هذا الموقف، وأخفف وقع الصدمة على نفسها حتى تمر بها ولا تقف عندها، فهي صورة ستعقبها صور مثلها وأخرى أصعب منها.

إنها سنة الحياة تبلوننا لتعرف أننا أحق

أسمع طرقات على الباب. ابتسمت، وغرد قلبي لسماعها، وهرعت أفتح للحبيبة الصغيرة التي تلمس تعلقها بها، ومدى طربي لمقدمها، ولهذا تفضل أن تدق الباب ولا تترع الجرس لأميزها عن غيرها، فتشبع في نفسي البهجة حتى قبل أن أراها.

يا لهذا القلب الغض والمشاعر البكر، ونضارة الصبا إنها فاطمة ابنة أخي في الخامسة عشرة من عمرها، لاتعرف من الحياة إلا حلوها، ويبدو أنها على أعتاب حياة جديدة ستدلف منها إلى مشكلات وتجارب، ستبلور شخصيتها، وتعدّها لمرحلة الشباب، وتحمل أعباء الحياة بما فيها من متناقضات، وما تحمله من مفاجآت، فقد استقبلتها فوجدتها على غير عاداتها، لقد كانت تدلف من الباب مندفعة إلى أحضاني، تمطرني بوابل من القبلات، وكثير من عبارات الشوق، فإذا انفلتت من أحضاني أسرعت تحيي كل من تجده في البيت قبل أن تستقر في مكانها إلى جوارني لتجاذبني أطراف الحديث، وللحديث معها شجون.

إنها اليوم واجمة مطرقة، أحسست ببرود مشاعرها وأنا ألتفنها لأضمها

فقد عشت سنين أتمنى لقاء صديقة طفولتي سهير، التي فارقتني ونحن في المرحلة الابتدائية، حيث غادرت البلدة التي نقيم فيها في إحدى محافظات الوجه البحري في معية والدها الذي نقل إلى مقر عمله الجديد، في العاصمة. وعلى قدر سرور صديقتي وأسرتها بالمقام الجديد، كان حزني لرفاقها، لقد رحلت وتركت أجمل ذكريات عشناها معا زميلتي دراسة وصديقتين لا يعرف قلباهما إلا الحب الطاهر، والمشاعر الطيبة الصادقة.

وبعد رحيلها ألمني أنها أثرت سعاد ثالثتنا في هذه الرابطة المقدسة، فأعطتها صورة تذكارية من صورها، ولم تفعل ذلك معي. ولكني ولشدة حبي لها التمسث لها العذر وسامحتها، وصالحت نفسي بحجة أنها بالتأكيد لا تقصد أن تهين مشاعري أو تنتقص من مقدار حبي لها، أو تتجاهل أهمية هذا التذكار بالنسبة لإنسانة ستظل وافية لها حتى يسمح الدهر باجتماع شملهما مرة أخرى فنصل ما قطعه الفراق من ود. ومررت الأيام وأنا على العهد باقية، وعلى أمل اللقاء متمنية. وانقضت أعوام الدراسة في المدارس لتستكمل بدخولي الجامعة. ولن أكون كاذبة أو مدعية إن أقسمت أنني لم أنس صديقتي وتوأم روحي حتى تلك اللحظة التي جاءت فيها زميلتي في الكلية «نادية» تجذبني من يدي بعد انتهاء إحدى المحاضرات وتحثني على أن أغذ خطواتي لتسرع إلى المكتبة، وسألتهما وأنا أعدو لاهثة - في دهشة -:

- ولم هذه العجلة؟

لقد واعدت إحدى الصديقات وستقابل في المكتبة، ولا بد أن أكون في انتظارها فهي غريبة عن كليتنا إذ إنها تدرس في كلية الهندسة. ودفننا من باب المكتبة في خطوات

سريعة واستقر مقامنا في ركن مواجه للباب حتى ترانا الصديقة الوافدة دون أن تكلف نفسها عناء البحث.

وطربت لمشاعر نادية، وأيقنت أنها نعمت الصديقة، ولم أمكث إلا دقائق قضيناها في الحديث عن محاضرة اليوم والتعليق عليها وفي الحديث عن بعض شؤوننا الدراسية المشتركة.

وفجأة هبت نادية متجهة نحو الباب، وأدركت أن من تنتظرها قد حضرت فقمتم أتبعها لأكون في شرف الاستقبال مجاملة لزميلتي وصديقتي نادية.

وكانت المفاجأة!! لقد وجدتني أمام صورة كبيرة لزميلتي التي فارقتني وهي صغيرة. إنها «سهير» نعم إنها هي بعينها. وقد سمعت نادية تناديهما باسمها الغالي.

ووقفت أحلق فيها مذهولة. كان قلبي يتواذب طربا، ولملت عيناوي ببريق لم يخف على الضيفة وكأنه أثار دهشتها فسألتهني:

- هل تعرفيني؟

- نعم. ألسنت سهير...؟ إنك زميلة طفولتي وتوأم روحي التي عشت على ذكراك حتى اليوم، وما كنت أظن أن القدر يخبئ لي هذه المفاجأة المدهشة.

وهالني جمود مشاعرها - فقد وقفت تستمع ولا تتجاوب. فقلت ربما لم تهتد لمعرفة شخصي، واحتمال كبير أن السنين غير تضاريس وجهي!! فعلي أن أذكرها بهويتي حتى تعود بذكرتها إلى الورا ولا شك أنها ستتذكرني. وتقدمت منها أمسك يدها بود وأقول لها:

- أنا ابتسام ألا يذكرك هذا الاسم

بشيء؟

- لا... أرجو العذرة.

قالتها ووجهها يحمل مزيجا من الاستنكار والدهشة، بل الاستعلاء!! يا لقلبي الذي يكاد يتصدع كلما استعدت هذا

الموقف، ومجاهدتي في تجاهل مشاعر هذه المتناسية لود حرصت على الاحتفاظ به سنين طويلة، تجاهلت ما أبدته من إنكار لي فرحت أذكرها بأيام قضيناها معا كنا فيها متلازمتين في الفصل الدراسي وفي مرات اللهو البريء واللعب.

وبالخبية ألمني حينما ردت علي - ولم تفارق وجهها تعبيراته السابقة. مضافا إليها شيء من الاستهانة لا يخفى في رنة صوتها:-

- أهلا وسهلا.

وأشاحت بوجهها لتستأنف حديثها مع نادية في مرح وود مبالغ فيهما.

وعقد الموقف لساني. فاعتذرت منسحبة وحرصت على محو كل عبارات الترحيب والمودة التي ملأت بها قلبي طول سني الفراق، لينطلق بها لساني يوم اللقاء الذي عشت أحلم به لصديقة طلال انتظاري للقائها وعندما وجدتني - افترقنا.

وطوال حكايتي للقصة كنت غائبة بوعي عن الزمان والمكان الآني إلى زمان ماض ومكان كان، منفصلة بروحي عن الحاضرة (فاطمة) إلى الغائبة (سهير) حتى انتهيت من قصتي، فالتفت نحو الصغيرة العزيزة لأجد وجهها الغض ساجعا في الدموع. وقامت مغادرة، فودعتها وأنا لا أدري أين كانت أكثر حزنا:

امرأة جاوزت سن الشباب واندفاعه، ولكنها ما زالت تتذكر صديقتها التي طال انتظارها للقائها بعد فراق دام سنين. وعندما وجدتني افترقنا، فكان غيابها عبئا على القلب وألما. وكان لقاءها مزيدا منهما حتى شكل فيه بؤرة قهر لا تندمل؟!:

أم فتاة لم تبلغ بعد سن النضج وتحمل نتائج التجارب، وصدمت في مشاعرها صدمة أمطرت دموع العين. وصدعت جدران القلب!!! ■